الاحسان في موضعه

قصة اناتول فرانس

ترجمة : أحمد شكري طوب صقال

استقبلني في حجرته هورتور، مؤسس جريدة النجمة ومدير قسمي السياسة والادب بالمجلة القومية ومجلة العصر الجديد المصورة ، ثم خاطبني من اعماق كرسي ادارة التحرير ، قال :

« أريد أن تكتب لي ، ياصديقي مارتو ، حكاية من ثلثمائة سطر ، انشرها في العدد الخاص من العصر الجديد ، عدد راس السنة ، تكون ممتعة، يشيع فيها عبير الطبقة الراقية. »

فاخبرته انني لا اجيد ذلك ، لا اجيده، على الأقل ، بالمعنى الذي يرمي اليه ، ولكني مستعد ان اكتب له قصة ، فقال :

— واحب ان تسمى حكاية للأغنياء .

— احب الى ان تسمى حكاية للفقراء.

— هذا ما قصدت اليه. اريدها قصة توحى الى الأغنياء ان يعطفوا على الفقراء .

— وهذا هو مالا احبه ، قطعا : ان يشفق الاغنياء على الفقراء .

— عجيب :

— ليس عجيبا ، ولكنه مسألة علمية. انى اعتقد أن في اشفاق الاغنياء على الفقراء اهانة ، وانه مخالف لطبيعة الاخاء بين الناس . اذا اردتني ان اخاطب الاغنياء فسأقول لهم :

أعفوا الفقراء من شفقتكم ، فانهم في غير حاجة اليها. لماذا يكون منكم العطف، ولا يكون منكم العدل ؟ ان لكم معهم حسابا ، فسووا ذلك الحساب . ايست المسألة مسألة عاطفة ، انها مسألة اقتصادية . اذا كنتم بما تهبونه تريدون ان تطيلوا من أيام فقرهم وايام ثرائكم ، فهبتكم بالغة الظلم ، ودموعكم التي تمزجونها بها لن تجعلها عادلة . اقول لكم ردوا الاشياء الى اصحابها ، كما قال النائب العام للقاضي بعد ان سمع خطبة الاخ ميار الطيب . انتم تتصدقون لئلا تردوا الأشياء الى اصحابها ، تعطون قليلا لتحتفظوا بالكثير، ثم تهنئون انفسكم على ذلك. لمثل هذا القى طاغية ساموس بخاتمه في اليم ، ولكن ربة النقمة ابت قبول ذلك القربان ، واعاده صياد الى الطاغية في جوف سمكة . ثم سلبت ، بعد ذلك ، ثروة بولكرات عن آخرها .

— انت تمزح .

لست امزح . أريد أن يفهم الاثرياء انهم محسنون ، ولكن احسانهم ثمنه

بخس ، وانهم كرماء ولكن كرمهم لا يكلفهم الا قليلا ، وانهم يلاهون دائنيهم . وليس بمثل هذا تعالج الاعمال . هذا راى ربما انتفعوا به .

ـ وتريد أن انشر مثل هذه الآراء فى العصر الجديد كى اروجها ! كلا ، ياصديقى ، كلا !

ـ لماذا تريد أن يتخذ الغنى فى معاملته للفقير مسلكا غير مسلكه مع الاغنياء واصحاب النفوذ ؟ انه يؤدى للأغنياء ما هو مدين لهم به حينما يكون مدينا فاذا كان غير مدين لم يعطهم شيئا ، وهذه نزاهة لاتشوبها شائبة . فان يكن نزيها حقا ، فليكن هذا شأنه مع الفقراء ايضا . ثم لا تقل أن الاغنياء ليسوا مدينين بشيء للفقراء ، فلست اعتقد ان غنيا واحدا يرى ذلك الرأى . ان الآراء تبدأ تتباين فقط حينما نتناول تقدير الدين . وليس هناك من يهمهم الاسراع فى الوصول الى حل ، لانهم يفضلون ان يبقى الامر مبهما : يعرف كل منهم أنه مدين ، ولكنه لايعرف قدر ماهو مدين به، فيتقدم بين الحين والحين بقليل على الحساب. هذا ما يسمونه الاحسان، وانه لذو نفع كبير .

ـ ولكن الذى تقوله ، يازميلى العزيز ، خال من العقل . أنا قد اكون اشتراكيا اكثر منك ، ولكنى عملى . ان الذى يمنع الما أو يطيل حياة أو يرد ظلما اجتماعيا . قد وصل الى غاية ما . وما يفعله الانسان من خير ، وان يكن قايلا، هو خير على كل حال : ان لم يكن كل المطلوب ، فبعض المطلوب . ولئن وصلت القصة التى اطابها منك الى قلوب مائة من المشتركين الاغنياء ، فحببت اليهم العطاء ، لقد كان ذلك نصرا احرزناه من قوى الشر والالم . ورويدا رويدا ، على هذا النحو ، نجعل حياة الفقير محتملة .

ـ أمن صالح الفقراء ان تصبح حياتهم محتملة ؟ لولا الفقر ما كان الثراء ، ولولا الثراء ما كان الفقر . هما شران يخلق احدهما الآخر ويرعاه . والفقر ليس فى حاجة الى اصلاح ، ولكنه حال يجب ان تزول . أنا لا أغرى بالاحسان غنيا ، لان اعطية الاغنياء مسمومة ، ولان صدقاتهم سلام على من يعطيها ، وشر يحيق بمن يعطاها . وأخيرا لأن الثراء ، فى ذاته ، جاف شديد القسوة ، فيجب ان لا يظهر فى مظهر خادع من الاريحية. وحيث أنك تريدنى أن اكتب حكاية يقرؤها الاغنياء ،فسأقول لهم : «فقراؤكم ككلابكم تطعمونها لكى تتهيأ للعض . وآخذوا الصدقات يتحولون كلابا للطبقة المالكة تنبح فى وجوه المعدمين ان الاثرياء لايعطون الا من يسالهم العطاء ، والعمال لايطلبون شيئا ، فهم لاينالون شيئا ،

ـ ولكن ما رأيك فى الايتامى والعاجزين والمسنين ؟ ...

ـ من حقهم أن يعيشوا . ولكنى لن استدر العطف عليهم ، بل استصرخ من اجلهم القانون .

ـ هذا كلام نظرى ! فلنرجع الى الحقائق . اكتب لى قصة قصيرة فى عدد راس السنة ، ولك أن تدخل فيها مسحة من الاشتراكية ، فالاشتراكية بدعة اليوم ، واحد شواهد الامتياز والاناقة . طبعا أنا لا اعنى اشتراكية جوزو أو اشتراكية جورس ، ولكنى اقصد اشتراكية معتدلة يراها الفاهمون للحياة ، بحق وتبصر ، مخالفة للشيوعية

الجامعة . ثم ادخل فى حكايتك عنصر الشباب ، وسأجعل لها صورا جميلة ، فالقراء يحبون أن يكون موضوع الصورة بهيجا . وايكن فى احد المواقف فتاة رشيقة . ليس ذلك صعبا ؟

— ليس ذلك صعبا .

— الا يمكنك ان تدخل فيها أيضا غلاما ممن ينظفون مداخن المدافىء ؟ ان عندى لذلك صورة مهيأة ، صورة ملونة لفتاة تعطى احد هؤلاء حسنة فوق درج كنيسة الدين . هذه فرصة سانحة للانتفاع بالصورة .... الثلج يتساقط فى يوم بارد والآنسة الحسناء تتصدق على منظف المداخن ... هل تخيلتها ؟

— تخيلتها .

— اذن انسج على منوال هذه الفكرة .

— سأنسج على منوالها . يتملك عرفان الجميل شعور منظف المداخن فيطوق بذراعيه عنق الآنسة الحسناء ، ابنة الكنت دلينوت ، ويقبل خدها فتنطبع عليه دائرة صغيرة من السواد ، دائرة صغيرة جميلة تامة الاستدارة حالكة السواد . ويغرم الفتى بحبها ، ولا تستنكر ادمى (وادمى هو اسمها)مثل تلك العاطفة الحقيقية الخالصة .... أحسب أن فى هذه الفكرة مايكفى ليستدر العطف .

— نعم ، وسوف تستطيع ان تخرج منها شيئا .

— انك تشجعنى على الاستمرار ... وحينما تعود ادمى الى بيتها الفخم فى شارع ملزرب تجد انها تكره ، اول مرة ، ان تغسل وجهها ، فهى تريد ان تحتفظ بأثر الشفتين الماثل على خدها ... يتبعها منظف المداخن حتى باب منزلها . ويقف فى حالة وجد تحت منافذ منزل تلك الفتاة المعبودة ... ايعجبك هذا؟

— نعم ..

— سأستمر . وفى اليوم التالى ،على حين كانت ادمى راقدة فى سريرها الابيض الصغير ، اذ بمنظف المداخن يخرج من مدفأة حجرتها ثم يلقى بنفسه، دون اكتراث ، على الكاعب الجميلة فيكسوها بتلك الدوائر الصغيرة السوداء ، لقد فاتنى أن اقول لك انه كان آية من آيات الجمال . وبينما هو مستغرق فى عمله الحلو ، تفاجئه الكنتس دلينوت ، فتصيح وتستنجد ، وهو مستغرق لايرى ولا يسمع . »

« ياعزيزى مارتو ... »

«هو مستغرق حتى لايرى ولا يسمع. ويسرع الكنت الى الغرفة . وهو رجل ذو نفس ارستقراطية ، فيمسك بمنظف المداخن من سراويله التى تكون أول ما تقع عليه عينيه ، ثم يقذف به من النافذة . »

« يا عزيزى مارتو ... »

« سأوجز ... وبعد تسعة اشهر يتزوج منظف المداخن الآنسة النبيلة . فقد تهيأت اسباب ذلك . هذه هى عاقبة وضع الاحسان فى موضعه .

— يا عزيزى مارتو ، كفاك سخرية منى .

— لا تظن شيئا من ذلك . سأتمها.. لما تزوج منظف المداخن الآنسة لينوت، اصبح«وكنتا بابويا» ثم افلس فى سباق الخيول . وهو اليوم يبيع المواقد فى شارع الجيتى . فى حى منبرناس . اما زوجته فهى تتولى شئون الدكان وتبيع

الموقد بسبعين فرنكا تدفع منجمة على ثمانية أشهر .

ـ يا عزيزى مارتو ، لسنا فى مجال مجون .

ـ تنبه ، ياعزيزى هورتور ، فليس ما قصصته عليك سوى أساس قصة لامرتين المسماة « سقوط ملاك » وقصة الفرد دفنى المسماه « الوا » . انها على كل حال ، خير من قصصك التى تبللهـا العبرات ، والتى تجعل الناس يحسبون انهم أخيار ، وما هم بأخيار على الاطلاق ، وانهم يعملون عملا صالحا ، وهم ابعد ما يكون عن العمل الصالح ، وانه من السهل أن يكونوا محسنين ، على حين ان الاحسان أصعب الاشياء عليهم طرا . ان قصتى أخلاقية ، وهى فوق ذلك تدعو الى التفاؤل وتنتهى نهاية طيبة ، لان ادمى وجدت فى دكانها بشارع الجيتى ، تلك السعادة التى كانت ستطلبها عبثا فى الملاهى والمآدب ، لو هى تزوجت أحد رجال السلك السـياسي أو أحد الضباط ... انحن متفقون ، ياحضرة المدير ؟ هل تنشر « ادمى » أو الاحسان فى موضعه ، فى مجلة العصر الجديد المصورة ؟

ـ أأنت جاد فيما تطلب ؟

ـ جاد كل الجد . وان رفضت حكايتى هذه نشرتها فى مكان آخر .

ـ أين ؟

ـ فى احـدى صـحف الطبقـة المتوسطة .

ـ انى أتحداك أن تفعل .

ـ سوف ترى .

ونشرت صـحيفة الفيجـارو التى **يديرها السيد روديس قصـة ادمى أو الاحسان فى موضعه ، مقـدما اياها للقراء ، على حد تعبيرهم ، هدية فى رأس السنة .**